جهود بعض المُحْدَثين في «العاميّ الفصيح»

د. ناصر الدين الأسد

عضو المجمع العربي- الأردن

لا يدخل في نطاق هذا العنوان تلك الكلمات الفصيحة السليمة التي يستعملها العامة في لهجتهم الدارجة، مثل ألفاظ: البحر، والنهر، والأرض، والشمس، والكرسي، والباب، والرغيف، وسواها من الكلمات التي يلفظها العامة على الصورة التي يكتبها بها الخاصة. فهي أوضح من أن يدار عليها بحث.

ولكن الذي يندرج في ثنايا هذا العنوان نوعان من الألفاظ:

الأول: ما اعتراه في نطق العامّة شيء من التحريف والتغيير أخرجه عن الصورة الفصيحة، فابتعد قليلا أو كثيرا عن أصله الفصيح أو عن االلغة العاليةب، وإن كانت بعض كتب اللغة قد احتفظت بصيغته التي تجري على ألسنة العوام وأشارت إلى أنها لغة، وربما ذكرت اسم القبيلة التي كانت تلك الكلمة من لغتها.

ويكون هذا التحريف أو التغيير في الأصوات وحركات الحروف، كقولهم: عَنْدَك، بفتح العين. فقد جرت الخاصّة على كسرها، وظنّوا أن

فتحها من خطأ العامة. على حين قال الجوهري: فيها ثلاث لغات: فتح العين وضمها وكسرها. وإن كان ابن هشام قد قال: وكسر فائها أكثر من ضمها وفتحها. وهذا يعني أنّ كلاً من الضمّ والفتح كثير أيضا[1] . كما يكون هذا التحريف أو التغيير بوضع حرف مكان حرف كقولهم: شَكَيْتُ [2] وحشَيْتُ بدل شكوت وحشوت. أو باستعمال الثلاثي مكان الرباعي كقولهم نَصَتَ [3] بدل أنْصَتَ، وعَتَقَه [4] في موضع أعتَقَهُ، وصابه [5] السهم بدل أصابه. أو باستعمال بعض الصيغ الصرفية التي تخالف القياس، كقولهم: فلان أشرّ من فلان [6] ، بدل من شرٌّ منه، وهذا أبيض [7] من ذاك بدل أنصع بياضا منه . أو بحذف بعض الحروف للتخفيف، كقولهم: وَنا[8] في مكان وأنا، ومرة[9] في مكان امرأة. إلى غير ذلك من صور التحريف والتغيير التي يصعب تصنيفها. وأكثرها مما له وجه من الصحة أو نسبة إلى لغة لإحدى القبائل، ولكنّ الخاصة يتجنبون استعماله ويؤثرون عليه الفصيح العالي الذي جرى عليه الاستعمال واستقرّ.

ومن التحريف والتغيير ما يكون على مراحل، فتبتعد اللفظة عن أصلها، ولا يكاد يُستبان وجه الشبه بينهما، فمن ذلك ما نقله ابن منظور عن التهذيب قال[10]: «وأما القَرْطَبانُ الذي تقوله العامّة للذي لا غيرة له فهو مُغيَّرٌ عن وجهه، قال الأصمعي: الكَلْتَبانُ مأخوذ من الكَلَب، وهو: القيادة، والتاء والنون زائدتان. قال: وهذه اللفظة هي القديمة عن العرب، وغيَّرتها العامة الأولى فقالت: القَلْطبانُ، قال وجاءت عامّةٌ سُفْلَى فغيّرت

على الأولى فقالت: القَرْطَبانُ » . ولا تعنينا هذه الكلمة لذاتها، فنحن لا نعرف مدى انتشارها في العامية، ولكن الذي يعنينا ما ورد في النص من وجود مرحلتين من مراحل التحريف مرّت بهما الكلمة، ومن وجود طبقتين للعامة تعملان على التغيير والتحريف حتى تبتعد الكلمة عن أصلها الفصيح.

ومن ذلك أيضا قولهم : أمّال . ذكر ابن منظور في اللسان أنّ [11]: افي حديث بيع الثمر: إما لا فلا تَبَايَعوا حتى يبدو صلاح الثمر. قال ابن الأثير: هذه كلمة ترد في المحاورات كثيرا... وأصلها إن وما ولا... قال الجوهري: قولهم إما لا فافعل كذا، بالإمالة... قال: ومعناه إلاّ يكن ذلك الأمر فافعل كذا. قال: وقد أمالت العرب «لا» إمالة خفيفة، والعوام يشبعون إمالتها فتصير ألفها ياءً، وهو خطأ، ومعناها إن لم تفعل هذا فليكن هذا... وروي أبو الزبير عن جابر: أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى جملاً نادّاً فقال: لمن هذا الجمل ؟ فإذا فتية من الأنصار قالوا: استقينا عليه عشرين سنة وبه سَخِيمةٌ فأردنا أن ننحره فانفلت منا، فقال: أتبيعونه ؟ قالوا: لا بل هو لك فقال: إما لا فأحسنوا إليه حتى يأتي أجَلُه. قال أبو منصور: أراد إلا تبيعوه فأحسنوا إليه... قال أبو حاتم: ... والعامة تقول أيضا أُمّالي، فيضمّون الألف، وهو خطأ أيضاً : قال: والصواب إما لا، غير مُمال لأن الأدوات لا تمال... « وقال عزّ الدين التنوخي [12]: «ولا يزال ضمّ الألف من (إمّا) مع إمالة ألف (لا) لغة العامة في مصر إذ تقول (أُمّالي)ب . ولست أدري أهذه هي لفظة الأُمَّالب

التي لا تزال جارية على ألسنة العامة في مصر، أم أنها لفظة أخرى ؟ فإن كانت هي إياها فقد تغيّر نطقها، وأصبحت تلفظ بحذف الألف الأخيرة، وبسكون اللام، مثلما تغيّر معناها فأصبحت تدلّ على عدد من المعاني المتقاربة تختلف عمّا ذكره ابن منظور والتنوخيّ.

والنوع الثاني: ما يجرى على ألسنة العامة ولا تجرى به ألسنة الخاصة ولا أقلامهم مع أنه من الفصيح الذي انقطع استعماله عند الخاصة في الكتابة وبقي دارجا على ألسنه العامة حتى نُسيت نسبته إلى الفصيح وظُنّ أنه من العامي الذي يربأ الخاصة عن استعماله في شعرهم ونثرهم. وربما كان من أمثلة هذا النوع الثاني لفظة «قُرنة» المستعملة في بلاد الشام وبعض بلاد مصر بمعنى: الزاوية، أو الرُّكن، أو ملتقى جدارين في الحجرة، أو ملتقى شارعين. وهي كلمة فصيحة ذكرتها المعاجم، وليست أجنبية معرّبة كما يظنّ من ذهب هذا المذهب. «فالقُرْنة بالضم: الطَّرف الشاخص من كل شيء... وقُرْنة السيف والسنان: حدُّهما، وقُرْنة النصل: طرَفه، وقيل: قُرْنتاه ناحيتاه من عن يمينه وشماله... والقُرْنتان: رأس الرحم، وقيل: زاويتاه» (13).

ومثل ثانٍ: لفظة «زنَأَ» و «زنَّأَ عليه» وهما لفظتان فصيحتان في البناء والاستعمال، فقد ورد في المعاجم: «زنَّأَ عليه: إذا ضيّق عليه، مثقّلة مهموزة... وفي الحديث: أنه كان لا يحبّ من الدنيا إلا أزنأها، أي أضيقَها. وفي حديث سعد بن ضَمُرَة: فزنّأوا عليه بالحجارة، أي ضيَّقوا».

* * *

وقد أكثر القدماء والمحدَثون من الكتابة في موضوع هذا العنوان، فأشار إليه بعضهم إشارات عابرة في ثنايا مؤلفاتهم أو ذكروه في فصول فرعية في كتبهم، وأفرده بعضهم بتآليف مستقلة.

وربما أقدمَ من نعرف ممن أفرد له كتابا جعل عنوانه خاصا به، ود الاّ عليه، هو ابن الحنبلي الحلبي [14] في كتابه ا بحر العوَّام فيما أصاب فيه العواما. وأما الذين أشاروا إليه إشارات عابرة أوعقدوا له فصولا فرعية في ثنايا مؤلفاتهم فهم الذين ألّفوا كتبا في «لحن العامة»[15] و«تثقيف اللسان»[16] و«تقويمه»[17] و «إصلاح المنطق»[18] و«أوهام الخواص»[19], وما يشبهها. وهي كتب وُضِعَت في أصلها لنقيض ما وضع له الكتاب الأول، فقد حرصت هذه الكتب على تخطئة ما نطقت به العامة، وبيان بُعْدِهِ عن الفصيح، وذكر الصحيح فيه. على حين نحا ابن الحنبلي نحوا مغايرا إذ ألَّف كتابه في تلمّس وجه الصواب في لغة العوام وقربها من اللغة الفصيحة.

ومع ذلك فإن هذا الكتب والكتب الأخرى تتفق وتتداخل في مواضع متعددة.

ومن أمثلة ذلك أن صاحب كتاب اتثقيف اللسان وتلقيح الجَنان عقد في كتابه ثلاثة فصول هي أدخل في كتاب ابحر العوَّام، وعناوينها: «باب ما تنكره الخاصة على العامة وليس بمنكر»[20] ، و«باب ما جاء فيه لغتان استعمل العامة أفصحهما»[21] و«باب ما العامة فيه على الصواب والخاصة على الخطأ» [22]. فكتاب ابن الحنبلي شبيه بهذه الفصول التي

تصوِّب بعض ما يقوله العامة وتنسبه إلى الفصيح، وإن تفاوتت درجاته في «الفصاحة».

وقد انقسم المُحْدثون كذلك فريقين: ألّف الفريق الأول، وأصحابه هم الأكثر، في بيان الخطأ فيما جرت به أقلام الكتّاب وألسنة الناس. وألّف آخرون، وهم القلّة، في بيان وجوه القربي وصلاتها بين لغة العامة واللغة الفصيحة. والفريق الثاني هذ الذي يعنينا في موضوعنا عن «العامي الفصيح». وسنقتصر على ذكر أربعة من رجاله، لتقدمهم في هذا الباب، وتتبّعهم لمفرداته، وتوالي جهودهم فيه. وأوّل هؤلاء الأربعة: أحمد رضا العاملي[23] الذي بدأ بسلسلة مقالات عنوانها االغريب الفصيح في العاميب نشرها في مجلة «المجمع العلمي العربي»، جاءت ثلاث منها بالعنوان السابق[24]، ثم غيّره إلى عنوان «العامي والفصيح» ونشر فيه عشر مقالات[25]. وقد بدأ

نشر هذه السلسلة سنة 1926م وختمها سنة 1948م. ثم جمع ما نشره في كتاب جعل عنوانه ارد العامي إلى الفصيحب، فيه ألف وأربعمائة وستون كلمة عامية. وربما كان من المفيد أن نورد بعض عباراته لنستدلّ بها على هدفه وأسلوبه، قال في مقدمة المقالات الثلاث الأولى التي جعل عنوانها «الغريب الفصيح في العامي»: «... لم تخرج العامية، مع تحريفها وعدم ضبط قواعدها عن كونها لغة عربية. والتحريف كان معروفا باختلاف لغات العرب». ثم قال إن العامية على ضروب، ذكر منها عددا لا يعنينا منه في هذا المجال إلا الثالث والرابع، وهما:

«3 – ألفاظ استعملها العرب وعرفتها العامة وقلّ استعمال الخاصة لها فلم تشع بينها، وهو ما نعني بالبحث فيه الآن.

4– ألفاظ للعرب فيها لغتان أو أكثر أخذت العامة ببعضها والخاصة ببعض آخر».

ثم قال: «وقد رأيت في مراجعاتي كلمات في اللغة من الضربين الثالث والرابع قلّ استعمال الخاصة لها حتى كادت تُعدّ غريبة عندهم ولكنها كثيرة الورود في كلام العامة فعُنيت بذكرها وشرحها تذكرة للباحثين وبُلغة للمتأدبين»[26].

وقال في مقدّمة مقالاته السبع التي جعل عنوانها «العامي والفصيح»[27]:

«كنت وأنا أعمل في تأليف كتابي متن اللغة، واسمه يدل عليه، يعرض لذهني كلمات عامية لها معنى الفصيح الذي أدوّنه، فأعلّق الكلمة العامية على هامش الصفحة. وربما كان اللفظ العامي هو لفظ الفصيح، ولكن الفصيح غريب والعامي مشهور، فأَعُدُه من الغريب الفصيح في العامي، أو يكون في العامي تحريف قليل أو كثير من قلب أو إبدال فأدلّ عليه، ولم أُعْنَ بالتحريف في الحركات لأنها فيما أرى أكثر من أن تحصى بين العامي والفصيح. وربما كانت العامية دخيلة أو مولدة لم يعرفها الأولون بل عرفت في عصر العباسيين ومَنْ بعدهم، فأذكر ما وصل إليه بحثي فيها القاصر[28] على الكتب العربية التي بيدي. وربما تراءى لي في بعض ما نسبه الباحثون في الألفاظ المعربة إلى غير العربية

وعدّه دخيلا فيها، أنه عربي أو يمكن تخريجه على أنه عربي، فأذكر ما تراءى لي فيه، لأنني رأيت أن بعضهم أسرف في إلحاق كثير من الكلمات العربية بالسريانية أو غيرها من اللغات، مع أن إرجاعها إلى أصل عربي واضح أو ممكن على الأقل، فلا ينبغي والحال هذه جعله دخيلا ما دام لعروبته وجه... وأنه لغني عن البيان أن أكثر ما ذكرته من العامي إنما هو من اللهجة التي اسمعها كل يوم بل كل ساعة وهي لهجة جبل عاملة وساحل دمشق وما يليه من سفوح لبنانب. وختم كتابه بقوله[29]: «هذا آخر ما أردنا بحثه من الكلمات العامية وتخريجها على الفصيح وهو باب من البحث لم أعهد أحدا عاناه قبلي على هذه الطريقة وفيه من المشقة والعناء ما لا يخفى على الناظر المتأمل ولذلك أعتذر للقراء الكرام عما يمكن أن يكون في البحث من السقطات أو التعليل الذي لا يروق لهم أو لبعضهم».



وأما ثاني الأربعة الذين ألّفوا في العامي الفصيح، فهو الدكتور أحمد عيسى[30] ، الذي تداخل عمله في الزمن وعمل الأستاذ أحمد رضا العاملي ذلك أن الدكتور أحمد عيسى أصدر كتابا عنوانهب المحكم في أصول الكلمات العامية» سنة 1939 بعد نشر المقالات الثلاث الأولى للأستاذ أحمد رضا بثلاثة عشرة سنة، وقبل صدور كتابه «رد العامي إلى

الفصيح» بثلاث عشرة سنة أيضا. وربما تبادلا الاستفادة والتأثر: فمن المستبعد ألا يكون الدكتور أحمد عيسى قد اطلع على المقالات الثلاث الأولى التي نشرها الأستاذ أحمد رضا في مجلة ا المجمع العلمي العربيب بدمشق وكلاهما عضو فيه. وكذلك من المستبعد ألا يكون الأستاذ أحمد رضا قد اطلع على كتاب الدكتور أحمد عيسى قبل استمراره في نشر مقالاته السبع الأخرى في مجلة المجمع سنة 1944 وصدور كتابه سنة 1952. وربما كان مما يرجّح ذلك أن الأستاذ شفيق جبري نشر في مجلة المجمع [31] مقالة عرّف فيها بكتاب االمحكم في أصول الكلمات العاميةب. ومن هنا ذهبنا إلى تداخل العملين في الزمن وتبادلهما الاستفادة.

ومما يزيد أمر كتاب «المحكم في أصول الكلمات العامية» وضوحا أن نذكر عبارات من مقدّمته تكشف عن هدفه وأسلوبه، قال[32]: االلغة العربية العامية التي نتكلمها الآن في مصر ليست بعيدة كل البعد عن العربية الفصحى، وهي تبتعد عن الفصحى في شيئين: الإعراب وتركيب الحروف... على أن أكثر الكلمات العامية التي ينفر منها الآن الذوق ويستنكرها الحس إنما كانت من أفصح الألفاظ العربية وأدقها تعبيرا عما في النفس]و[مطابقة لمقتضى الحال، وأنّ كثير منها قد استعملت فيه المجازات اللطيفة والاستعارات المستملحة التي تعدّ من أرقى أساليب الفصاحة في الكلام والكتابة، ولقد تكفي نظرة فيما جمعناه وشرحناه للتحقق مما ذكرت. وقد يستغرب المتأمل في بعض الكلمات العامية بعدها هذا البعد عن أصلها الفصيح ويستبعد أن تكون بين الكلمتين صلة قرابة

سابقة، وإن هذا الاستغراب ليزول، وهذا الاستبعاد لينمحي متى علم أن التغيير في الكلمات الفصيحة لم يحدث مرة واحدة، بل إن هذه الألفاظ قد تعاورتها أدوار من التغيير تناوبتها مرة بعد أخرى، وأنه كان هناك عامّةٌ عليا وعامة سفلى أتت بعد الأولى، وزادت عليها في تغيير ألفاظ اللغة. قال ابن منظور (المتوفي سنة 711هـ) في مادة قرطب، وأما «القَرْطَبان» الذي تقوله (العامّة)[33] للذي لا غيرة له فهو مُغَيَّرٌ عن وجهه. قال الأصمعي: «لكَلْتَبانُ» مأخوذٌ من الكَلَب وهو[34] القيادة والتاء والنون زائدتان. قال: وهذه اللفظة هي القديمة عن العرب وغيَّرتها العامّةُ الأولى فقالت: «القَلْطَبان»[35] قال: وجاءت عامةٌ سُفْلى فغيرت على الأولى فقالت «القَرْطَبان». فيرى من ذلك أن اللفظ العامي قد تغير مرتين في دورين غير متباعدين كثيرا من أدوار حياة اللغة. ولقد تيسّر لي جمع الكثير من مفردات العامة وعملت على تحقيق أصولها وردّها إليها، ورتبتها في هذا السفر بحسب حروف الهجاء، فذكرت اللفظ العامي أولا وبجانبه تفسيره عند العوام، ثم أتيت بالأصل الفصيح، وذكرت تفسيره في معجمات اللغة كاللسان والتاج وبينت الحقيقة فيها والمجازا.

ولكن المؤلف لم يقتصر في عمله على الألفاظ العامية التي لها أصول فصيحة، بل جمع كثيرا من الألفاظ الدخيلة المعرَّبة وردَّها إلى أصولها اليونانية أو الإيطالية أو الفرنسية أو التركية أو الفارسية أو السريانية، وكل ذلك لا صلة له بموضوعنا عن االعامي الفصيحب ولا بما ذكره في مقدمته

مما اقتبسناه قبل قليل، وإن كان لا يتناقض مع عنوان الكتاب الذي جاء عامًا افي أصول الكلمات العاميةب دون تقييدها بالأصول الفصيحة.

والكتابان -على غزير نفعهما، وكثرة ما بُذل فيهما من جهد، وطول ما استغرقاه من وقت -لا يخلوان من السهو في إرجاع بعض الألفاظ إلى غير أصولها، وفي التكلف الواضح في محاولة ردّ بعض الكلمات إلى أصول لا صلة لها بها. فمنذ ذلك ما انتقده الأستاذ شفيق جبري في عرضه لكتاب «المحكم في أصول الكلمات العامية» قال[36]: افي بعض هذه الكلمات اجتهد الدكتور في ردّها إلى أصولها اجتهادا لم يظهر عليه أثر الكلفة، وفي بعضها كان اجتهاده عرضة لكثير من الكلفة. من قوله مثلا في مادة: بَظرَمَت، تقول العامة في مصر: بظرمت المسألة أي فشلت، فقد ردّ الدكتور هذه المادة إلى: (برم) الفصيحة فقال: برم بالأمر سئمه، فأقحمت العامة فيها الظاء فصارت، بظرم. فهذا اجتهاد على ما اعتقد لا يخلو من شيء من التعسف. ومن هذا الشكل قوله في مادة: فزّ، العامة تقول للرجل الذي تريد طرده: فز من هنا ، فالدكتور رد هذه اللفظة إلى مادة: فاز يفوز فوزا، وقال: كأنك تقول للرجل: فُزْ، أي انج بنفسك. على أنه لو رجع في القاموس المحيط إلى المادة التي جاءت قبل الفوز بثلاث لفظات لوجد: (فزّ) بعينها، فمن معانيها: فزّ فلانا عن موضعه فزًّا أزعجه، فالمعنى العامي مطابق للمعنى الفصيح لا تباعد بينهما، إلا أن العامة استعملت: فزّ لازمة، وجاءت في اللغة في هذا المقام متعدية، فلم يبق وجه بعد هذا التوضيح لرد هذه اللفظة العامية إلى: فاز يفوز فوزاً... ومن هذه

الاجتهادات ردُّه مادة: بعزأ فلوسه إلى: بعثق أي خرج الماء من غائل حوض أو جابية، وقد ردها أيضا إلى مادة أخرى وهي تزعبق الشيء من يدي أي تبرّز وتفرّق. والدكتور في غنى عن هذا كله، ففي اللغة يقال: بعزق الشيء، فرّقه وبدّده، مثل: زعبقه، فقول العامة: بعزأ فلوسه أصله: بعزق ، أبدلوا القاف بالهمزة(!) لا غير».



وثالث هؤلاء الأربعة المتقدّمين في هذا الموضوع، المتتبعين لفرائده، المنقبين عن غرائبه، هو الأستاذ شفيق جبري[37]. وحقّه التقديم وأن يكون أولهم لشدة تحرّيه وتمحيصه، ولعمق استنباطه وجودة ربطه العامي بأصله، وكثرة غوصه على أمهات كتب التراث واستخراج النصوص منها مستشهدا بها على صحّة تعبيرات العامة، غير مقتصر في ذلك على المعاجم وما فيها من دلالات لغوية. وإنما أخّرناه وجعلناه ثالثا لأنه بدأ مقالاته في سنة1942م. بعد المقالات الثلاث الأولى للأستاذ أحمد رضا العاملي بستّ عشرة سنة، وبعد صدور الطبعة الأولى من كتاب المحكم في أصول الكلمات العاميةب للدكتور أحمد عيسى بثلاث سنوات.

وقد نشر منها تسع عشرة مقالة على امتداد سبع وثلاثين سنة كان آخرها في سنة 1979م. بدأ مقالته الأولى سنة 1942م بمقدّمة يوضح فيها مقصده ويصف طبيعة عنوانه الذي اختاره لمقالاته وهو «بقايا الفصاح». قال[38]: «أعني ببقايا الفصاح طائفةً من الألفاظ التي استفاضت في

العامة وأصلها فصيح، إلا أنها مع تعاقب السنين عليها تباعد عنها فريق من الكتاب فذهب وهمنا إلى أنها عامية. ولهذه الألفاظ على ما أعتقد قوة غريبة في حياتها،فقد خلفها الماضي وتداولتها العامة،فلم تفقد شيئا منحياتها، على الرغم من اختلاطها بألفاظ أعجمية انحدرت إليها من الأمم التي انبسط سلطانها على هذه البلاد أو على بلاد العرب عامة، ففي كل بلد من بلاد العرب طوائف من هذه الألفاظ، ولكل طائفة منها حياة قوية. ولقد عُنيت بها من سنين فاجتمع لي مقدار منها أرجع إليه من حين إلى آخر فتنطوي لي أحقاب بعيدة، فأرى في تضاعيف هذه الألفاظ حياة بلد بأجمعه، إذ إنها تفصح لي عن ناحية من نواحي الاجتماع أو الاقتصاد أو عن معنى من المعاني النفيسة أو المادية أو غير هذا كله... وقد حافظ قسم من هذه الألفاظ على معناه الأول، فلم ينشأ تفاوت في المعنيين: اللغوي والعامي، وقسم منها عدّل بعض التعديل ولكن النسبة بين المعنيين مستحكمة على الرغم من هذا التعديل».

ومن أطرف تحقيقات الأستاذ شفيق جبري وأدقّها وأدلّها على سعة اطلاعه: تتبعه لبعض التعبيرات التي تجرى على ألسنة العامة وإرجاعها إلى الفصيح المدوّن في كتب تراثنا، وعدم اقتصاره على الألفاظ والكلمات المفردة. ومن أمثلة ذلك ما ذكره من أن العامة في دمشق تقول[39]: اما شبعت منه، أي من النظر إليه، إمّا لفرط جماله أو لطفه، وإمّا لحسن هيأته أو غير ذلك، وقد جاء في ذيل الأمالي ما يلي: قال الحجاج لثابت بن قيس الأنصاري: ارثِ ابني أبان، فقال له: إني لا أجد

به ما كنت أجده بحسن (ابن ثابت) قال: وما كنت تجد به، قال: ما رأيته قط فشبعت من رؤيته...»

وكذلك ما ذكره[40] «من قول العامة في دمشق: ركَّبوها عليه، وهم يريدون بذلك أنهم نسبوا إليه كلمة أو مسألة إما من باب الافتراء وإما من باب الظرف، فإذا قالوا: ركبوا عليه كذا أو كذا... أرادوا مرة الافتراء المطوى على شيء من الأذى ومرة السخرية المطوية على شيء من الظرف، جاء في الإمامة والسياسية لابن قتيبة في كلامٍ على خروجِ عليٍّ من المدينة أن أخاه عقِيلا كتب إليه كتابا جاء فيه: وأني خرجت معتمرا فلقيت عائشة، معها طلحة والزبير وذووهما وهم متوجهون إلى البصرة، قد أظهروا الخلاف ونكثوا البيعة وركّبوا عليك قتل عثمان...».

وكذلك ما ذكره [41] من أنّ ا من تراكيب العامة في دمشق: لا تدخل بيني وبينه، وهو مفهوم. وقد جاء هذا التركيب في الأغاني في أخبار اسحق بن ابراهيم. فقد نقل عون بن محمد حديثا عن اسحق، قال اسحق: لاعبت الفضل بن الربيع بالنرد، فوقع بيننا خلاف، فحلف وحلفت، فغضب علي وهجرني، فكتبت إليه أبياتا وعرضت الأبيات عليه فلما قرأها ضحك وقال: أشد من ذنبك أنك لا ترى لنفسك بذلك الفعل ذنبا، والله لولا أنني أدبتك أدب الرجل ولده وأن حَسَنَك وقبيحك مضافان إليّ لأنكرتني، فاصلحِ الآن قلب عون، وكان يحجبه، فخاطبته في ذلك، فكلمني بما كرهت، فقلت: أتدخل بيني وبين الأمير، أعزه الله...» .

ومن ذلك ما ذكره من أن[42] «من التراكيب الفصيحة التي تستعملها العامة قولهم: عليه موعد. وقد جاء في الأغاني في أخبار ابن مِسْجَح ونسبه في خلال قصة طريفة تتعلق بقبض عامل الحجاز لمال ابن مِسْجَح ونفيه ما يلي: ثم قال: يافتيان! هل فيكم من يضيف رجلا غريبا من أهل الحجاز، فنظر بعضهم إلى بعض، وكان عليهم موعد أن يذهبوا إلى قينة يقال لها برق الأفق! ».

وكذلك ما ذكره[43] من تعبير: «كسبوا بيته... وهو مفهوم، تريد العامة بذلك أنهم دخلوا بيته وفتشوه وقد جاء في الأغاني في أخبار ابراهيم الموصلي حديث لحماد بن اسحق عن جده ابراهيم قال: فلما ولي موسى الهادي الخلافة استتر جدى منه ولم يظهر له، بسبب الإيمان التي حلفه بها المهدي، فكانت منازلنا تكبس في كل وقت...» .

والأمثلة التي جمعها الأستاذ شفيق جبري من تعبيرات العامة ثم استخرجها من كتب التراث، فأثبت بذلك فصاحتها، أمثلة كثيرة، حسبنا منها ما قدّمنا. وجميع مراجعاته وتحقيقاته، في التعبيرات وفي الألفاظ معا، بعيدة عن التكلّف، والتزيد في التأويل، بريئة من افتعال صلات غير قائمة بين اللفظ العامي والأصل الفصيح. ويحسّ كل من يقرأها بصحة مأتاها، وسهولة مداخلها، ودقة تخريجاتها. وهي بذلك تختلف عن بعض ما ورد في الكتابين السابقين، على ما فيهما من جهد دؤوب ومن إصابة في أكثر التعليلات والتخريجات.

وآخر مَنْ نذكرهم في هذه المقالة الدكتور عبد المالك مرتاض الذي

ألّف كتابا عن «العامية الجزائرية وصِلتها بالفصحى» ذهب فيه إلى: «أن البحث في لهجة من اللهجات العامية لا يعد بالضرورة دعوة إليها، ولا إغراء بحياء ما اندثر منها، ولا دفعا إلى استعمالها في الكتابة- وإن كنا نؤثر أن لا يربأ الكتّاب عن استخدام الألفاظ الفصيحة المستعملة في العامية للتقريب بينها وبين الفصحى، فان معظم الألفاظ العامية الجزائرية فصيحة، وإنما أفسدت العامة بألسنتها، فأخذت تبتعد عن الفصحى من وجهة أو من أخرى- وإنما يعد بحثا علميا قائما على التطلع إلى المعرفة المجردة إن شئت، وإلى المعرفة الهادفة إن شئت ذلك أيضا»(44) وهو يرى وجوب أن يقوم المثقفون «بحملة تفصيحية، ولا أقول تعريبية، لأن عامة الجزائريين متعربون من حيث لهجتهم كما سنرى من خلال الأمثلة التي نسوقها، ونشرح أصولها، ونؤول مدلولاتها»(45) . وبعد أن يقطع شوطا في دراسته يقول(46): «ومن الأمثلة والشواهد التي جئنا بها، يمكن لنا أن نستخلص نتيجة هامة تتمثل في كون عاميتنا راقية جدا، بحيث يستطيع الباحث المحايد النزيه أن يضعها في صدر العاميات العربية الراقية. فعلى الرغم من الغزوات المتتالية، والاحتلالات المتعاقبة، لأرضنا، فإن اللغة العامية الجزائرية ظلت أقرب ما تكون إلى العربية الأصيلة، وأبعد ما تكون عن لغات المحتلين القدامى كالرومان والوندال، والمحدثين كالفرنسيين والاسبان». ويؤكد هذا المعنى أيضا قوله(47): «والذي يتأمل هذه الأشعار يجدها ذات أصول فصيحة، وهي لا تغترف من اللغات الأجنبية قطعا، بل تستعمل لغة عامية عربية

أقرب ما تكون إلى الفصحى. وهي ظاهرة لغوية رائعة، تدل على أصالة عروبة هذا الشعب، وعلى قوة شخصيته، وعلى متانة كيانه الحضاري». ويعود إلى تأكيد مذهبه في انتماء عامية الجزائر إلى الفصيحة بقوله[48]: «ولعل في هذا القدر من هذه الطائفة من الأمثال، ما يدل على أن الأمثال الشعبية الجزائرية تستعمل العربية السليمة في كثير من تراكيبها، وتستمد من أصولها الصحيحة. وكل ذلك يزيدنا اقتناعا بنقاوة عاميتنا، واقترابها اقترابا شديدا من الفصحى».

ونختم عرضنا لهذا الكتاب بالتوقف عند كلمة فيه استنكرها المؤلِّف واستقبحها، وهي كلمة ابزّاف فقد كتبها على هذه الصورة، وقال[49]: إن معناها: اكثير وقال: اوهي لهجة أهل الغرب الجزائري، وهي قبيحة. وأفضل منها لهجة المصريين، لأنهم يقولون: كتير، بالتاء لا بالثاء، و:بزّاف، لهجة أهل المغرب الأقصى أيضاب. ثم قال[50] «...اللهجات الجزائرية نفسها تختلف من اقليم إلى اقليم، فنجد فيها ما هو عال فصيح أو قريب من الفصيح، وفيها ما هو ركيك ضعيف أو منبوذ سخيف. أرأيت أن: ياسر، المستعملة في الشرق الجزائري، وفي تونس، بمعنى: كثير، أفضل بالضرورة من لفظ: بزّاف، المستعمل في الغرب الجزائري». فهو لا يتردد في وصف هذه الكلمة بأنها «قبيحةً» وفي إدخالها فيما هو «ركيك ضعيف، أو منبوذ سخيف» من الكلمات، كما أنه لا يتردد في كتابتها، في كل مرة تتكرر فيها، على الصورة التي نقلناها عنه. ولو أنه كتبها «بزاف»، بالألف واللام، اذ إن اللام لا تلفظ لأن الزاي حرف شمسي، لربما ربطها

بكلمة «بالجِزَّاف» المعجمية، التي قال الفيروزأبادي51 إنها مثلثة الجيم مثلها مثل: الجزافة. وفي اللسان: اوالجَزْفة: الأخذ بالكثرة، وجزف له بالكيل: أكثر. والجُزاف والجِزاف والجُزافة والجِزافة: بيعك الشيء واشتراؤكه بلا وزن ولا كيل...وهو دخيل، تقول: بعته بالجُزاف والجُزافة... وقول ضخر الغَيّ[52]:

فأَقْبَلَ منه طِوالُ الذُّرَى كأنَّ عليهنَّ بيعاً جَزِيفا

أراد طعاما بِيع جِزافاً بغير كيل، يصف سحابا. أبوعمرو: اجْتَزَفْتُ الشيء اجتِزافا اذا شَرَيْتَه جِزافاً...»53.

ونطق الجيم والزاي صعب على العامة، فأسقطوا الجيم، وهكذا بقيت صيغة «بالزاف» التي كتبها المؤلف «بزّاف» فانْبَهم أصلها. وإذا كانت الكلمة في المعاجم اباجزاف مثلثة الجيم، وإذا كان من صيغها «بالجزافة» و«الجزيف» فهل يجوز أن نذهب إلى أن استعمال العامة في مصر لكلمة «بالزوفة» -وهي بالمعنى نفسه- هو مثل استعمال المغرب الأقصى والغرب الجزائري لكلمة «بالزاف» وهما ينتسبان إلى كلمة «بالجزاف» ؟

* * *

وبعد،

فقد شارك كثيرون آخرون من المُحْدَثين -غير هؤلاء الأربعة- في دراسة هذا الموضوع، والكتابة عنه، وتتبّع كلماته، وبذلوا الجهد في تلمّس نسبتها إلى أصولها الفصيحة، فيما نشروا من كتب أو مقالات، ولا يزالون يكتبون. وإنما اخترنا هؤلاء الأربعة، واقتصرنا عليهم، لأنهم من بلاد عربية

مختلفة، هي: لبنان، ومصر، وسورية، والجزائر، ولم نختر من القطر الواحد سوى عالم واحد، ، ثم لأنّ أوّلهم كان أقدم من بدأ الكتابة في هذا الموضوع من المُحْدَثين، وتسلسل بعده الثلاثة الآخرون ولكّن اثنين منهم تداخلا مع الأولى في مرحلة من مراحل كتاباتهم، فهما بهذا يندرجان معه في السَّبْق والقُدْمة، أما الرابع فقد تأخر عنهم حقّاً ولكن كتابه له قيمة خاصة لأنه يمثل الجناح الغربي للوطن العربي ويعرض عامية أهله. ولم نقصد إلى الاستيفاء والاستقصاء، وإنما قصدنا إلى التمثيل والاستشهاد، وقد يقوم القليل أحيانا مقام الكثير، وقد يغني ضرب المثل عن التفصيل.

ناصر الدين الأسد

عضو المجمع العربي - الأردن

الهوامش :

1 ابن الحنبلي الحلبي، بحر العوّام فيما أصاب فيه العوام، ص31

2 بحر العوّام: 27

3 المصدر السابق: 19

4 المصدر السابق: 80

5 المصدر السابق: 50

6 المصدر السابق: 61

7 المصدر السابق: 41

8 المصدر السابق: 39

9 المصدر السابق: 31

10 اللسان (قرطب) وانظر كذلك الدكتور أحمد عيسى : المحكم في أصول الكلمات العامية.

11 اللسان (لا- إما لا)

12 بحر العوّام: 16 في الحاشية، والمحكم في أصول الكلمات العامية:16

13 اللسان (قرن) . وانظر كذلك شفبق جبري، بقايا الفصاح، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج26 ، ج.2 ، نيسان سنة 1951 م.

14 محمد بن ابراهيم، توفي في حلب سنة 971 هـ.

15 كتاب الحن العواما لأبي بكر محمد بن الحسن الزُّبيدي الإشبيلي (ت379هـ) تحقيق رمضان عبد التواب . والكتاب في لحن العامّة من الأندلس. وكذلك كتاب اما تلحن فيه العامّةب للكسائي (ت189هـ).

16 كتاب اتثقيف اللسان وتلقيح الجنانب لأبي مكّي الصقلّي (ت501هـ) والكتاب في لحن عامة صقلية في عصر المؤلف.

17 كتاب «تقويم اللسان» لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزى (ت 597هـ) والكتاب في لحن عامة بغداد في عصر المؤلف .

18 كتاب «إصلاح المنطق» لأبي يوسف يعقوب بن السكيت (244هـ).

19 كتاب «درة الغوّاص في أوهام الخواص» للحريري (516هـ).

20 ص: 227. 237 -

21 ص: 241.

22 ص: 242-246

23عضو المجمع العلمي العربي بدمشق (مجمع اللغة العربية) توفي سنة 1953 م.

24 مجلد: 6 ، ج: 10-11-12 ، سنة 1926م.

25 مجلد: 19 ، ج: 1- 6 ، سنة 1944 م ، ثم مجلد: 20 ، ج.5-6 و 9- 10 ، سنة 1945م ، ثم مجلد: 22 ، ج: 5-6 و 11 12 - سنة 1947م ، ثم مجلد: 23 ، ج: 1 و2 و4 ، سنة 1948م.

26 مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، مج.6 ، ج.10 ، تشرين أول 1926 ، ص: 437-439.

27 مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق: مج.19 ، ج.1 و2 ، كانون الثاني وشباط 1944م. ، ص: 59. وقد أعاد هذه المقدمة بتغيير يسير في بعض ألفاظها في كتابه « رد العامي إلى الفصيح».

28 صحّحها في كتابهب رد العامي إلى الفصيح « فجعلها ا المقصور»، ص: 1.

29 ص: 419.

30 عضو المجمع العلمي المصري ، والأكاديمية الدولية لتاريخ العلوم بباريس ، والمجمع العلمي العربي بدمشق ، والمجلس الأعلى لدار الكتب المصرية... توفي سنة 1946م.

31 مج 18 ، ج.5 و 6 ، أيار وحزيران 1943 ، ص260-262 .

32 المقدمة: س- ف

33 سقطت من الأصل وأثبتها من اللسان.

34 في الأصل «من الكَلْتَبَة وهي» والتصحيح من اللسان

35 في الأصل «قَلْطَبان» دون أل التعريف ، وأثبت ما في اللسان.

36 مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج18 ، ج5 و 6 أيار وحزيران 1943 ، ص: 261-262

37 عضو المجمع العلمي العربي بدمشق وعميد كلية الآداب فيها، شاعر معروف له ديوان مطبوع، توفي سنة 1980 م.

38 مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج 17 ، ج 3 ، آدار 1942م، ص: 114-115.

39 مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، مج 21 ، ج.1 ، كانون الثاني 1946م ، ص 12 .

40 المصدر السابق: 12.

41 المصدر السابق:14.

42 مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، مج 21 ، ج.1 ، ص: 14-15.

43 المصدر السابق: 15

44 العامية الجزائرية وصلتها بالفصحى ، المقدمة: 6 .

45 العامية الجزائرية وصلتها بالفصحى ، المقدمة : 11.

46 المصدر السابق : 68-69.

47 المصدر السابق : 93.

48 المصدر السابق : 133-134.

49 المصدر السابق:17.

50 المصدر السابق: 29.

51 القاموس المحيط (جزف).

52 شاعر.

53 اللسان (جزف).

المراجع

1-أحمد رضا العاملي

ردّ العاميّ إلى الفصيح، دار العرفان: صيدا - لبنان 1952.

2- أحمد عيسى

المُحْكَم في أصول الكلمات العامية، ط.الأولى، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر 1358 هـ=1939م

3-ابن الجوزي

تقويم اللسان، تحقيق عبد العزيز مطر، دار المعرفة: القاهرة، 1966

4-الحريري

درّة الغوّاص في أوهام الخواص، مطبعة الجوائب: قسطنطينية 1299 هـ.

5- ابن الحنبلي الحلبي

بحر العوَّام فيما أصاب فيه العوام ، تحقيق عزّ الدين التنوخي ، المجمع العلمي العربي: دمشق 1356هـ= 1937م.

6- الزبيدي ، أبو بكر

لحن العوام ، تحقيق رمضان عبد التواب ، دار العروبة: القاهرة، 1964م.

7- ابن السكيت

إصلاح المنطق ، طـ.الأولى ، دار المعارف بمصر 1956م.

8- عبد الملك مرتاض

العامية الجزائرية وصلتها بالفصحى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع: الجزائر 1981م.

9- الكسائي

ما تلحن فيه العامة ، تحقيق رمضان عبد التواب ، مكتبة الخانجي: القاهرة ودار الرفاعي: الرياض 1982م.

10- ابن مكّي الصقلّي

تثقيف اللسان وتلقيح الجَنان ، تحقيق عبد العزيز مطر ، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية: القاهرة 1386=1966م.